جمهورية العـــــــــــــــــــراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمـــي
جـــامـــعـــة ديـــالـــى
كـليـة التربيـة للعـلوم الإنسـانيـــة
قسم اللغة العربية – الدراسات العليا

المدائح النبويّة

بين

جمال الدّين الصّرصري ومالك بن المرحّل الأندلسي

(دراسة موازنَة)

رسالة مقدمة إلى مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية في جامعة
ديالى وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير
في اللغة العربية وآدابها
(تخصص/ الأدب)

من الطالبة
غدير علي محمود
بإشراف
الأستاذ الدكتور
لؤي صيهود التميمي

١٤٤٤هـ ٢٠٢٢م

الفصل الأول

ثقافة المجتمع الدّينيّة

وأثرها في صناعة المدائح النبّويّة

المبحث الأول

البيئة الدّينية وأثرها في ظهور المدح النبوي

إنّ التركيبة البشرية للمجتمع الأندلسي الجديد المتمثلة بالعرب، والبربر، والمستعربين، والمولدين، واليهود...إلخ... كانت لهم مزية تتمثّل بالتنوّع (الديني والقومي) التي أتاحت لهم نوعًا من ذلك التعايش، حتى تكاد تتآلف هويّات ذلك المجتمع، لهذا حصل اندماج بين جميع تلك العناصر، وتعلّموا لغة بعضهم، ونقلاً عن صاحب نفح الطيب قال (أبو عبيد البكري) في وصفه للأندلس: ((إنّها شامية في طيبها وهوائها، يمنية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جباياتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها))[1].

لذلك احتضنت الأندلس في بدايات تكوينها الآداب والفنون الثقافية، إذ أنشأوا فيها المدارس والمكتبات، فضلًا عن ترجمة العديد من المصادر لمختلف الثقافات، مع مراعاة الشعر القديم المتمثّل بالعصر الجاهلي وغيره، كما كان للأدب الأندلسي قوّة يستخدمها الشاعر للدفاع عن وطنه ودينه، لذلك نلحظ أن المظاهر الدينية كانت ذا فضاء واسع، تُنشر عن طريق دور العبادة وحلقات الدرس الديني الذي كان له دور فعّال في نشأة البيئة الدينية في الأندلس وأدبه، المتمثّل بالمدح النبوي الذي هو مثال موضوعنا هذا[2].

❖ **مهيمنة الصّلاة على النّبي الأكرم:**

اكتسب الشعراء مضمون الهويّة الدينية أو السياق الديني لتضاف إلى مخزونهم الشعري، لنلحظ ذلك بصورة واضحة لكلا الشاعرين، إذ رسّخا في ذلك

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١٢٥

(٢) ينظر تاريخ الأدب العربي في المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى آخر عصر ملوك الطوائف: د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٩٧م: ج١٧/٤، ينظر تاريخ النقد الأدبي في الأندلس: الدكتور محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة ط٢، ١٩٩٣م: ٤٩.

مضمونهما بذكر الصلاة المحمدية بدلالة أنّ شعريهما أصبح جزءًا ممّا اكتسبا من تقاليد ذلك المجتمع، ليظهر ذلك واضحًا في ما أورده (الصّرصري)، فكان تأثير البيئة الدينية واضحًا على شعره، وذلك بوساطة نبوغه بالمدح النبوي، إذ ساعده في ذلك حسّه الأدبي المرهف ومشاعره الإيمانية التي استطاع بوساطتها أن يُنشئ قصائد طوالًا تعبّر عن مضمون ذلك الحب وتلك الحقبة[1]، قائلًا:

صلّى عليه إلهُ العرش ثمّ على أصحابه فهُمُ الأعيانُ والنّجُبُ

أزكي صلاةٍ أتمّاها وأدومها وأجرُ ذلك عند الله أحتسبُ

وأرتجي بمديحي فيه مكرمةً من دونها الفضّة البيضاءُ والذهبُ[2]

نلحظ عليه أنّه بدأ شعره بالصلاة على النبي، وأنّ الله تعالى فرض الصلاة عليه في حدّ قوله، وسلّم بعد ذلك على أصحابه باعتبارهم هم أكرم الناس لكونهم أقرب إلى النبي، فجاء هنا تأثير البيئة الدينية واضحًا، وكانت لغته جزلة واضحة، إذ إنّها تنساب كأنّها حوار واضح ومفهوم، وبوساطتها استطاع أن يهدي أزكى صلاة وأتمّها وأدومها، واحتسب أجر هذه الصلاة عند الله تعالى، ويرجو شاعرنا بمديحه الرسول مكرمة منه ورضاه عليه، فذلك عنده أغلى من كنوز الذهب والفضة.

أمّا المرحّل الأندلسي، فهو لا يخالف قرينه الشاعر السابق بما ذكر في المدح النبوي، متضمنًا سيرة الرسول الأعظم بما يتمثّله من شوق وحنين إلى رؤيته قائلًا:

محمّد الممدوح بالشعر فاعلم وصلِّ على هذا النّبيّ وسلّمِ

محبّتُه تتلو محبةَ ربِّه وكلتاهما نورٌ على كلِّ مسلمِ

---

(١) ينظر: المدائح النبوية بين الصّرصري والبويصري: د. صالح مخيمر، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٦م: ٥٧.

(٢) ديوان الإمام الصّرصري: تح مصطفى مصطفى عطا، دار الكتب المصرية، ط١، ٢٠١٥م: ٣٢.

محـــا حـــبّ مولانـــا وحـــبُّ حبيبـــه هـــوى كـــلِّ قلـــبٍ بالصّـــبابة مُعلـــمِ

محاسـنُ هـذا المصـطفى فاقـتِ الـورى فلـيسَ لهـا فـي الأرض غيـر مُسـلّمِ (١)

بـدأ بـذكر الرسـول الأعظـم، ويليهـا الصـلاة عليـه بوصـفها ظـاهرة إيمانيـة سـادت عنـد الشـعوب الإسـلامية، فأكّـد بوسـاطتها أنّ محبـة النبـي الأكـرم هـي بعـد محبـة الخـالق سـبحانه وتعـالى؛ لأنّ هـذا النـوع مـن المحبّـة يعطـي شـيئًا مـن النـور يتنـوّر بهـا قلـب كـلّ مسـلم، فحبّـه بعـد حـبّ خالقـه يعطـي رقّـة وشـوقًا لرؤيتـه، يمكـن أن نقـول محبّتـه تعطـي حـرارة لكثـرة الشـوق لـه، حتـى إنّـه قصـد بمـا لا أحـد يملـك صـفة مـن صـفاته غيـره هـو، لهـذا وجـد أنّ محبّتـه هـي بعـد محبـة الله تعـالى، كمـا ذكـر المرحّـل هنـا وجـوب محبّـة الرسـول بعـد السـلام عليـه، لـذلك نلحـظ بعضًـا مـن صـفات تلـك النشـأة الدينيـة (وصـلِّ علـى هـذا النبـي وسـلم)، تأكيـد علـى تكـرار هـذه اللفظـة عنـد المسـلمين كلّمـا سـاق الحـديث عـن الرسـول الكـريم، وهـو هنـا أوردهـا ملتصـقًا بـذكر الرسول، ويقول المرحّل الأندلسي في قصيدة أخرى يبدؤوها قائلًا:

محمّـــدُ المقصـــودُ بالمـــدح فـــافْهَمِ وصـــلِّ عليـــه كـــلَّ حـــين وسَـــلِّمِ

مغازيـــه أُملـــي ثـــم آياتُـــه التـــي تجلّـــت فجلّـــت مـــن شـــموس وأنجـــم

منحتـــك منهـــا كـــلَّ درّ مُـــدَحْرَجٍ ولا منْـع فـاجمع مـا منحتـك وانظـمِ (٢)

فكـان كلامـه واضـحًا غيـر مـبهم، وإنّـه عنـد ذكـر النبـي (ﷺ) تكـون الصـلاة عليـه واجبـة، فكـان حـرف الميم ؛ علـى شـعر الشـاعر يضـفي ، بمـا سـاعده ذلـك علـى إظهـار المحاسـن والصـفات لشـخص النبـي، ويـدعو إلـى حفـظ أو فهـم كـلّ مغازيـه، وحتـى الآيـات الخاصّـة بـه فـي الـذكر الكـريم التـي ظهـرت وتبلـت، كلمـا انكشـفت الشـمس

(١) مالك بن المرحّل أديب العدوتين: تح أ. د. محمد مسعود جبران، المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٥م: ٣٧٠.

(٢) مالك بن المرحّل أديب العدوتين: ٣٩٩.

وظهرت النجوم، وهذه الصفات التي اتّصف بها الرسول الأعظم هي التي تمنح الإنسان كلّ ما يخرج منه من خير وعطاء كأنّه أشبه باللؤلؤة

❖ **المقدمات الدينية:**

ما تزال التربية الدينية التي اكتسبها شاعرانا بوساطة توطيد تلك الأسس في مضامينهم الشعرية دالّة على الصبغة التي ارتسمت في فكرهما ومخيلتهما، ليتجلّى ذلك بقول الصرصري مادحًا رسولنا الأعظم بلغة انمازت بالوضوح واليسر، قائلًا:

الحمد لله العظيمِ المُحْتَجَبْ عن العيون ذي الجلال والرهبْ

وبعدُ فاسمعْ يا أخي (لي) وانْتَدِبْ لمدحِ خيرِ النّاس عُجْمًا وَعَرَبْ

لمّا بنى الله السّماواتِ والرّحَبْ وزانَها بالنيّرينِ وَالشُهُبْ[1]

تضمّنت هذه الأبيات مقدّمة رسّخت فيها أبجديات السياق الديني (الحمد لله العظيم المحتجّب)، فهي أشبه بتلك الخطب الدينية التي يعمد إليها مؤلّفوها (الخطباء)، فهي اقرب إلى البسملة التي اعتاد عليها كما ذكر سابقًا، ثمّ بعد ذلك يدخل إلى مركزية الموضوع بدلالة النصح والإرشاد، وأية ذلك كلمة(أخي) التي تدلّ على السموحة والتقارب الديني، فضلًا عمّا يملكه من إحساس مرهف، وأن يجعل شعره هنا مفهومًا كأنّه عبارة عن لوحة فنّية تتجلّى فيها كلّ صفات الجمال لذكر شخص الرسول عليه الصلاة والسلام، فبدأ بحمد الله تعالى؛ لأنّه هو الذي لا تدركه الأبصار، ويتّصف بالجلال والرهبة التي تبيّن عظمة الخالق، ونبّه شاعرنا الناس على أن يستمعوا لما يقوله في مدح خير الناس، سواء كانوا عربًا أو عجمًا، وأشار إلى أنّ الله تعالى اصطفاه بعد أن خلق السماوات وزيّنها بالشمس والقمر والنجوم والشهب، ونلحظ ممّا سبق أنّ شعره خلا من الغلو والشطط، فكانت أبياته ذات ألفاظ سلسة، لكنّها مبهمة بعض الشيء، فتحتاج إلى معاجم عربية لفهمها فهمًا

(١) ديوان الإمام الصّرصري: ٥٩.

يجعلنا نستوعب ما ذكره، لذلك تعدّ أيقونة دينية واضحة، تبدأ بالبسملة، ثم إلى مركزية النصح والإرشاد، ثمّ بعدها ينتقل إلى البرهان والدليل (بنى الله السموات والرحب)، وهذا هو أبرز البناء الفني الذي يستخدم في تركيبة الخطب الدينية بتقديم البرهان الدالّ على ما ذكر.

أمّا الشاعر المرحّل فإنّ لغته سهلة، فكانت أبياته ذات ألفاظ سهلة وتراكيب بسيطة، ويرجع ذلك إلى التزام الشاعر بالنظم على كلّ حروف المعجم، لذا كانت تراكيبه بسيطة، خالية من التعقيد، ونلحظ أنّ كلا الشاعرين كانت النشأة الدينية واضحة بوساطة تأثيرها على مضمونهم الشعري، بدليل أنّه أورد بيتًا يتضمّن أية من الذكر الحكيم ليقول فيها:

نذيرٌ جاءكم عريانُ يعدو وأنتُمْ تضحكونَ وتَلْعَبونا

أُخَيَّ إلى متى هذا التّصابي جُنِنتُ بهذِهِ الدّنيا جنونا

هي الدُّنيا وإنْ صلّت وبرّت فكَمْ قَطَعَتْ وكم تَرَكَتْ بنينا

فلا تَخْدَعْكَ أيّام تليها ليالٍ واخشِها بيضًا وجونا (١)

فنلحظ هنا أثر الثقافة الدينية على نفسية الشاعر، إذ نجده يتحدّث عن مجيء النبي الأكرم بأنّه نذير للأمّة الإسلامية كافة، وهذا النذير إذ جاءكم في مكان خالٍ مكشوف لا يستتر فيه بشيء، ولكن أنتم ما زلتم تضحكون وتلعبون، وهي مزيّة يعمدها الشاعر بوصفها مقدّمة دينية تشير إلى جراءة الفعل غير المباحة، لذلك يلصقها بلفظ (**نذير جاءكم**)، متضمّنة قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾ [سورة الملك:٩] فهي أقرب إلى التحذير من ذلك الفعل، بدلالة أنّه يورد بعدها في البيت التالي جملًا

(١) مالك بن المرحّل أديب العدوتين: ٣٥٩.

تؤكّد على اللهو واللغو والإسراف بوساطة (التصابي، الخداع، الجنون، الخشية)، وكلّها سمات تدلّ على تحذير الشاعر منها، ولهذا ينصحهم بعدم الخداع فيها، وأن تكون لياليهم مع أيّامهم في هذه الدنيا كأنها طُليت باللون الأبيض، ولا تكون حياتهم كالسواد، وتميّز المرحّل في عصره بأنّ شعره كان ((أطبع أسلوبًا وأرشقهم لفظًا وأبلغهم معنى، وتمّ ذلك من خلال إدراكه ونبوغه بالمقاصد اللسانية بيانًا ونحوًا وعروضًا وقافية وحفظًا للجيد من الشعر واضطلاعًا به، حزمة معانيه وتراكيبه))[1]، ولهذا جاء شعره جامعًا بين سهولة اللفظ وسلاسة المعنى، ولهذا نجده يدخل في شعره إلى جوهر المتلقّي، ويقول في مدح الرسول الأعظم قائلاً:

برحمةِ ربي أرتجي حرمة القرُب فأدنو بها من سيّد العجم والعرب

برتني يدُ الأشواقِ بريًا وكيفَ لا ومثواه في شرق ومثواي في غرب

براهينُه في كلَّ شيء تبيّنت ومن لجّ مأتاه إلى الطعن والضرب[2]

يعتمد هنا على رحمة الله تعالى، يرتجي أن يتقرّب من شخص النبي الأعظم وهو سيد لكلّ عربي وعجمي، ويتحدّث عن شوقه له ونزوع نفسه لرؤيته ومحبته، حتى وإن كان الشاعر في مكان والنبي (ﷺ) في مكان آخر، فهو لا يحمل له سوى كثرة شوقه لشيء مرغوب فيه، فهو الإنسان الذي ظهرت براهينه (حججه) في كلّ مكان، حتى الذي تمادى في عناده وتابع في إلحاحه، ويحاول إدراك شفعه، إذ إنّه تأثّر بالقرآن الكريم بشكل ملحوظ قائلاً:

برحمةِ ربّي أرتجي حرمة القرُب فأدنو بها من سيّد العجم والعرب [3]

---

(١) ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة: ٩٩٥.

(٢) مالك بن المرحّل أديب العدوتين: ٣٦١.

(٣) المصدر نفسه: ٣٦١.

نلحظ على لفظة (الرحمة) تلك التعبيرات القرآنية التي وردت في أكثر من موضع في قصائده، فالشاعر يرتجي بهذه الرحمة التي عند الله أن يكون قريبًا من النبي الذي هو سيد لكلّ عربي وأعجمي، وحتى لفظة (العرب) كانت مأخوذة من القرآن بدليل قوله تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء:١٩٥]، فكانت ألفاظه مستوحاة من بيئته الدينية.

❖ **الدعوة الدينية (الإشهار):**

لم يتناسَ شعراؤنا تضمين تلك الممارسة الفعلية في دعواهم إلى إشهار الدين الحنيف، وذكر محاسن الإسلام، متألقًا بذكر الرسول الأعظم وحسن صفاته وكرمه بوصفه ظاهرة على التشجيع والترغيب بتوالي الآخر تحت راية الإسلام، لذلك يقول يحيى الصّرصري:

قليلٌ لمدح المصطفى الخطّ بالذهبْ على فضّةٍ من خطّ أحسنّ مَن كَتَبْ

وأن تنهض الأشرافُ عنَد سماعه قيامًا صفوفًا أو جثيًّا عن الرُّكَبْ

أما للهِ تعظيمًا له كتبَ اسْمُهُ على عرشِهِ يا رتبةَ سمتِ الرُّتبْ(١)

يقصد هنا أنّه من القليل في مدح النبي الأكرم أن نكتب عنه بماء الذهب على لوح من الفضة بأجمل الخطوط، لسموّ مقامه وعظمة شأنه، وأنّه قليل في حقّ النبيّ الأكرم عند ذكر اسمه، وأن ينهض الأشراف قيامًا مصطفين، أو حتى جثيًّا على الركب عند ذكر اسمه ولعظمته عند الله، فإنّ الله تعالى كتب اسمه على عرشه، وأعطاه رتبة من أسمى الرتب، فنلحظ عليه البراعة في توظيف العبارات بأسلوب حواري شكّل ألواحًا فنّية بسبب تربيته الدينية في محاولة منه لتقديم أيقونة واضحة تطوي في آثارها رائحة التشوق والاستكشاف بالنسبة للآخر للتعرف على هويّة الإسلام المتمثّلة برسولنا الأعظم، أمّا الصور الفنّية فكانت أكثر كثافة وتعقيدًا من سابقه، لذلك يقول:

---

(١) ديوان الإمام الصّرصري: ٣٦-٣٧.

شـربتُ مـن السّـلوان أبـردَ مشـربٍ إن اختـرتُ إلا حـرَّ وجـدي بكـم شِـربا

فـلا ذقـتُ للعتـبِ الأمَـرِّ حَـلاوةً إذا لـمْ يكـنْ عنـدي عـذابَكُمُ عَـذْبا[1]

إنّ الشّـرب مـن السّـلوان أعـذب مشـربًا حينمـا اقتلـع عـن جميـع المشـارب الأخرى، فهـو لـم يـذق للعتـب المـرّ حـلاوة إذا لـم يكـن عـذابكم عنـد الشـاعر مستسـاغًا، فـنلحظ صـعوبة فـي فهـم المعنـى مـن هـذين البيتـين، ففيـه تعقيـدًا، وصـورته غيـر واضـحة بشـكل كلّـي، وقـد تـرك الوجـود الإسـلامي فـي الأنـدلس طابعًـا فـي مختلـف مجـالات الحيـاة، ومـن هنـا نجـد أنّ هنـاك مـن اهـتمّ بتنظـيم بعـض المنـاطق الأندلسـية، وكانـت العنايـةُ منصـبَّة علـى جـامع قرطبـة، إذ أصـبحت أعظـم جامعـة إسـلامية فـي الأنـدلس، وألّـف الأندلسـيون فـي علـوم القـرآن والحـديث والفقـه، وفـي القضـاء واللغـة وآدابهـا، أي إنّـه يعمـد إلـى أسـلوب البحـث والمداولـة فـي كشـف مضـمون ذلـك بطريقـة أشـبه بالبحـث عـن اللؤلـؤ المكنـون لغايـة يقصـدها الشـاعر، أي إنّ كليهمـا (الشـاعرين) يختلفـان فـي تضـمين الموضـوعات واختيـار الألفـاظ الدالّـة عليهـا، ولـذلك كـان للقـرآن الكـريم والحـديث النبـوي الشـريف، وحتـى السـيرة النبويـة، أثـر انعكـس فـي موضـوعات الشـعراء الشـعرية، وهـذا مـا رمـى إليـه أحـد البـاحثين إذ قـدر: ((أنّ الشـعراء ردّدوا المعـاني نفسـها، وأعـادوا الأفكـار ذاتهـا، وإن أعـادوا صـياغتها، ويعـود ذلـك إلـى اعتمـاد الشـعراء فـي أخـذ أفكـارهم ومعـانيهم علـى الكتـب الكثيـرة حـول سـيرة النبـي (صـلى الله عليـه وسـلم)، وخصائصـه، ودلائـل نبوتـه))[2]، ونجـد هـذا واضـحًا عنـد المرحّـل الأندلسي، إذ يقول:

ضـروبُ المعـالي فـي النبـيِّ تّجمَّعَـتْ أقـرَّ لـه أهـلُ السّـموات والأرض

ضرائفُـه علويـّة ملكيـّةٌ فما بَرحَتْ تُرضى وما برحتْ تُرضي

---

(١) ديوان الإمام الصّرصري: ٥٨.

(٢) المـدائح النبويـة حتـى نهايـة العصـر الملـوكي: د. محمـود سـالم محمـد، دار الفكـر، دمشـق، ط١، ١٤١٧هـ: ٢١٨-٢١٩.

ضـريس وغـى أبطالُـه ضـرّس العـــدا   فسدّوا علـيهم مسكَ الطُول والعرض[1]

أي إنّ فعل التأثير البيئي يُلحظ من الشرف والرفعة والمكانة السامية، كلّها تجمعت في النبي الأعظم، وهذا ما شهد له أهل السموات والأرض بمكانته العظيمة عند الله تعالى وعند الناس أجمعين، وهو ما يستحسنه الناس في شخصية النبي العطرة، فنلحظ أنّ الشاعر كان متأثّرا بالإسلام، لدرجة أنّه يرى أنّ كلّ الصفات الرفيعة هي تليق بنبي الله وحده، وكذلك الصرصري أيضًا، فهذا الشرف والمكانة الرفيعة نجدها تليق بشخصية النبي، إذ نجده يقول:

سـقى دارَهـا هـامٍ مـن المُـزْنِ واكِـفُ مُـــرَبّ بأرجـــاءِ المعاهـــدِ عـــاكفُ

فزانَـــتْ ثراهـــا مـــن نســـيجَ رياضِـــها ســرابيلُ وشـــيٍ فوّفَـــتْ ومطـــارفُ

وعـاقرَ فيهـا الرنـدُ كأسـاً مـن النـدى وغنتـه وّرْقٌ فـي الفـروعِ هواتـفُ [2]

يـدعو ديـار الحجـاز أن تُسـقى مـن ميـاه المـزن الهاميـة، لكـي تنبـت فيهـا مـن الريـاض مـا يشـبه السـرابيل، وهـذا النـدى يتسـاقط علـى شـجر الرنـد، وتغنّـي لـه ورق الهواتـف علـى فروعـه فيطـرب، وهـذا مـا أكّـده الشـاعر فـي مولـد النبـي (ﷺ) ، فهـذه المكانـة الدينيـة فـي الأنـدلس جعلتـه يرسـم لوحـة فنيـة بأسـلوب متنـاغم ومنسـجم مـع وصـف ولادة النبـي(ﷺ)، ويقـول المرحّـل الأندلسـي عنـدما رأى أنّ النبـي الأعظـم جـاء هاديًا لكلّ إنسان زائغ عن أوامر الله تعالى، فيقول:

غرائـــبُ آيـــاتِ النبـــي محمـــدِ هُـدًى لأولـــي الألبـــاب إن زاغ زائـــغُ

غريـــتُ بأوصـــافي لهـــا فكأنّمـــا أنـــا ســـابكٌ للتبـــر أو أنـــا صـــائغُ

غـرار حُسـام المصـطفى قهـرَ العـدا ومـن هـوَ عـن نهـج الشـريعة زائـغُ [3]

هنــا وضّــح أنّ النبــي بكــلّ معجزاتــه كــان هدايــة للنــاس المســتقيمين الــذين ينتفعـون بـالوحي، ويفهمـون معـاني مـا أُنـزل علـى الرسـول مـن الله تعـالى، فهـو هـادٍ مـن

---

(١) مالك بن المرحّل أديب العدوتين: ٣٧٢.

(٢) ديوان الإمام الصّرصري: ٣٧٤.

(٣) مالك بن المرحّل أديب العدوتين: ٣٧٣.

الله إلى الذي مال أو انحرف عن سبيل الله تعالى، أي إنّه يلوّح بتلك المعجزات التي ضمّنها الله تعالى في نهج رسوله الأعظم، لتكون خير دلالة وبرهان على صدق تلك النبوة، ولم تكن هذه سمة المرحّل فحسب، بل إنّ الصرصري تحدّث عنها بوصفها هداية للبشر، قائلًا:

هم القومُ لا يشْقىَ الجليسَ لديهُمُ ولم يعدِموا العافينَ بِشْرًا وتَصْنيفا
هم العُروةُ الوُثْقى وهم أنجمُ الهدى بهُمَ يحفظُ الله المَهابةَ والسَّيفا
أعزاءُ محروسِ الجنابِ فناؤُهُمْ تُخطَفُ مَن ناواهم الذُّلُّ تَخْطيفا (١)

إنّ هداية النبي (ﷺ) لهؤلاء الصالحين هي منوال حديثه بمنزلة القلب الرؤوف، فهم لا يشقى بهم الجليس، وأكّد أنّهم العروة الوثقى لمن اقتضى نهجهم وهم أنجم الهدى، فكان يتحدّث عن العلماء الذين وصفهم أنّه هادٍ لهم، وهم يسيرون على نهجه، لذلك بلغت البيئة الأندلسية مستوى متقدمًا ومتطورًا، حتى غدت في كثير من الأحيان مقصدًا للعلماء والأدباء، وكانت مقصدًا يلجؤون إليها لطلب العلم، ونلحظ أنّها تركت أثرًا كبيرًا في الحياة الإسلامية مع أثرها الأكبر على المستوى العقائدي الإسلامي، ويعدّ الرسول (ﷺ) المثل الأعلى لكلّ مسلم في خلقه ونسكه، وورعه، وعطفه، وانقياده لأوامر الله تعالى، والسنّة النبوية التي هي كلّ قول أو فعل أو تقرير منه، والمجتمع الأندلسي، وإن طغت عليه مظاهر اللهو، كانت صورة الرسول (ﷺ) تتلألأ أمام أعينهم، كبارًا وصغارًا، وهذا ما نجده عند المرحّل الأندلسي أيضًا مادحًا النبي الأعظم، قائلًا:

وقفتُ على مدح الرسول قصائدي فياليتَ لا آلو فما أقبح الآلوا
وقوتي به معمورةٌ وهو لذتي وقوتي ومن يسلو إذا أطعم السلوا
وقى الله نفسي أن تهيم بغيره تدلّي في ماء سوى مائه دلوا (٢)

---

(١) ديوان الإمام الصّرصري: ٤٠٠.

(٢) مالك بن المرحّل أديب العدوتين: ٣٧٧.

أورد الشاعر معنى قصائد كثيرة تجمع ما بين الألفاظ الإسلامية التي أثّرت في شعره، فهنا رسم لوحة فنية وصف فيها حبّه وشوقه للنبي (ﷺ) ، كأنّ حبّه للنبي يحلو كالعسل له، وشاهد الوصف من نعت الجمال ومن عزّ الجلال حقيق رؤية البصر، ونجد هذه الصفة تتكرّر عند الصرصري مادحًا النبي الأعظم، قائلًا:

فهذه رُتْبَةٌ ما نالَها بَشَرٌ إلا الذّي مّدْحُه في محكم الزّمَرِ

صلى الإلهُ عليه ما سَرَتْ شُهْبٌ وما تعاقَبَ ضوءُ الشَّمسِ والقمِر(١)

مدح النبي الأعظم بمزيّةٍ هي انّه نال منزلةٍ مانالها بشر غيره (ﷺ)، والتي قد مدحه بها ربّه عزّ وجلّ، فهو الذي صلى عليه الإله ما سرت شهب السماء، وما تعاقب ضوء الشمس والقمر، إذن فالمدح النبوي هو شعر يقوله شاعر مهتمّ بالسّياق الدينّي عن طريق إظهار الشوق إليه وزيارة الأماكن المقدّسة ترتبط بحياته، وذكر معجزاته المادّية والمعنوية، يقول المرحّل الأندلسي يذكر ولادة النبي (ﷺ) قائلًا:

بنفسي رسولٌ طاهرُ المجد طيبّ تنقل من صُلب كريم إلى صلب

به أبرأ الله العيونَ من العمى به أبرز الله القلوب من الحجب

بشيرٌ لمن لبّى نذيرٌ لمن أبى سراجٌ لذي لحظ دليلٌ لذي لبّ(٢)

تحدث الشاعر عن البشارة العظيمة التي تنبأت بولادة الرسول الأعظم، ليكون خاتم الانبياء طاهرًا، طيّب القلب، رؤوفًا بالناس ونسله من أشرف الأعراق، لتقترب دلالة الصورة بعشقه ومنال مراده مع تعزيز مركزية الإيمان والإشهار التي يرغب بتوطيدها، وهذا ما نجده أيضًا عند الصّرصري قائلًا:

جرت نسيمُ السحرِ على متون الغدرِ

فجَعدتْها وثنتْ أعطافَ سبطِ الشجرِ

---

(١) ديوان الإمام الصّرصري: ٢٣٣.

(٢) مالك بن المرحّل أديب العدوتين: ٣٨١.

وضـــــمختْ ملابـــــسَ الـــــرْ رَوض بنشـــــــرٍ عطـــــــرِ[١]

يتحدّث الشاعر بطريقة متناغمة مع جوّ القصيدة، فهو يقول جرى النسيم في السحر على متون الغدران، وجعدت النسمات تلك المياه، وثنت أعطاف أغصان الشجر، وهذه الملابس الروض ضخّمت بنشر الريح عطرًا، كأنما فضت بهذا الروض قارورة مسك أذفر، أي شدّة في ذكاء الريح بسرعة انتقال هذا السحر، وفي موضع آخر نلحظ يقول المرحّل الأندلسي:

تعـــالوا أحـــدّثُكُم عـــن الليَلـــة التّـــي تحلّـــت بنـــور المصَـــطفى وتحلَّـــتْ
تَقَـــدّم جبريـــلٌ فصـــلّى وأقبلـــت ملائكـــةُ الـــرَّحمن فوجًـــا فصـــلّتْ
ترامَـــتْ نجـــومُ الأفُـــق وأَسْـــرَعَتْ إلـــى كـــلّ شـــيطانٍ ســـنانًا وألـــتْ[٢]

فالشاعر تحدّث عن مدى شوقه لرؤية اليوم الذي ولد فيه رسولنا الكريم، فهو يحدّثنا أنّه حتى الملائكة كانت فرحة بقدوم هذا اليوم، ولهذا صلّت مع جبرائيل (عليه السلام)، وحتى النجوم كانت أكثر سطوعًا وعبّرت عن فرحتها بهذه الولادة في هذه البلاد المباركة، مع مراعاة طريقة التوطيد (تعالوا أحدثكم)، والتي دلّت بفحواها على آلية إجابة ورغبة في الإشهار، إذن نلحظ أنّ أثر البيئة الدينية كان واضحًا في لغة الشاعرين، من حيث كونهما تأثّرا بالإسلام وكلّ ما حمله من ألفاظ إسلامية تعبّر عن روح العصر، وعبّر بوساطة اللغة عن مدى شوقهما لرؤية النبي الأعظم، وعن معجزاته وصفاته الخَلْقية والخُلُقية، وحتى شجاعته قبل بعثته رسولًا للعالمين.

---

(١) ديوان الإمام الصّرصري: ٢٣٩.

(٢) مالك بن المرحّل أديب العدوتين: ٣٨٢.

❖مركزيّة الدّين الإسلامي في توطيد الخلق العربي:

١. الحكمة:

نالت الحكمة(*) فيضًا واسعًا في رحاب الشعر العربي منذ القدم والى عالمنا الحالي، لتتساق ماهيتها نحو تقديم برهان يضيء دروب الآخرين، إذ تعدّ أيقونة واضحة لثقافة قائلها، معتمدة بذلك على مخزونه الثقافي، فلم يكن الشاعرَان بعيدين عن توطيد هذه السمة كما فعلها أقرانهم السابقون، لتكون دلالتها الفنّية مضيئة ضمن مرجعياتهم الشعرية، إذ نلحظ الشاعر الصرصري ورود مظهر الحكمة في سياقه الشعري مبرهنًا بذلك على سعة مخيّلته الثقافية، قائلًا:

للعبدِ أن يسأل الرّحمنَ حاجتَهُ ولـيسَ للعبدِ أن يُعْطَى الذّي سألا

فربَّ حاجةِ عبدٍ ظنَّ راحتَهُ فيها ولو قُضَيْت كانت له شُغَلا(١)

نرى في هذه الأبيات تضمين حاجة العبد من الله سبحانه وتعالى، مبرهنًا استطاعة العبد أن يسأل الرحمن عند حاجته، ولكن ليس بالضرورة أن يُعطى عن ما سُئل في كلّ الأحوال، بدليل قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ**

(*) ورد مصطلح الحكمة في لسان العرب، إذ جاءت في مادة حكم ((الحكيم ذو الحكمة، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، والحكمة العلم والتفقه، رجل حكيم عدل حكيم))، أما اصطلاحا فقد عرّفها الجرجاني قائلًا فيها بأنّها ((كلّ كلام وافق الحقّ، فهو حكمة، وقيل في الحكمة هي الكلام المعقول المصون عن الحشو))، وعرّفها ابن دريد من منظور ديني وخلقي فقال:((كلّ كلمة وعظتك أو زجرتك أو دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة))، لسان العرب: جمال الدين ابن منظور الأنصاري، تح (عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي)، دار المعارف، مصر: مادة (حكم)، التعريفات: السيد الشريف الجرجاني، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م: ٨١، الفوائد والأخبار: بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت ٣٢١هـ)، مؤسّسة الرسالة، ط٢، ١٩٨٦م: ٢٤٥.

(١) ديوان الإمام الصّرصري: ٤٨٧.

﴿ شَرٌّ لَّكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة:٢١٦[فإنّ هذه الحاجة لو تحقّقت للعبد المؤمن حصل على الراحة ولو شغلته عن دينه، وعن عبادته، والعمل الآخر، وإنّ الله سبحانه وتعالى يقدّر الأرزاق للعباد، ومن العجب أن يغضب العبد ويسخط لقلّة رزقه والسقام؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى عدل في تقسيم ذلك، نجد مضمون ما ذكر في قول الصرصري:

والله قدَّر أرزاقَ العِبادِ فما تَسَخَّطَ العَبدُ والقسَّامُ قد عَدَلا[1]

وبعد ذلك نجد الشاعر يأتي بمظهر الحكمة ودلالة أخرى، قائلًا فيها:

وما القنوطُ وربُّ العرشِ باعثُها لا يقطعُ الرزقَ حتى يقطعَ الأجَلا [2]

يلمّح الشاعر أن القنوط واليأس في ظلّ وجود الله هو باعث نفسي لا يقطع الرزق عن عبده حتى يأتي أجله، لذلك تعدّ الحكمة من أبرز الأغراض الشعرية القديمة وأشهرها انتشارًا بين تلك الأمم، وأكثرها بقاء وخلودًا على مرّ العصور، فالحكمة هي اللسان الذي يعبّر بها عمّا تختلج به القلوب والأذهان تجاه موقف معين أو حادث معين، تذهب بوساطتها الهموم والسقام من الأرواح، وتزيل المتاعب والآلام من النفس، فالحكمة هي فنّ من فنون الشعر العربي، كانت عبارة عن قصائد مبعثرة في العصر الجاهلي، حتى نما وأصبح فنًّا مستقلًّا تُنظّم فيه القصائد الطوال، فهي تهدف إلى النصح والإرشاد والموعظة الحسنة، وتعبّر عن تجربة ذاتية، فإذا تأمّلنا حكمة أجنبية أو حكمة عربية فسنلحظ أنّها تنطبق على كلّ المجتمعات، فالهدف منها إنساني يضرب الأمثال، وينبّه الإنسان، وينير له الطريق، ويدلّ على ما فيه من إصلاح لنفسه[3].

---

(١) ديوان الإمام الصّرصري: ٤٨٧.

(٢) المكان نفسه.

(٣) الحكمة في الشعر العربي: د. سراج الدين محمد، دار الراتب الجامعية، بيروت لبنان: ٥.

أمّا المرحّل الأندلسي، فهو الآخر الذي لا يخالف قرينه فيما سبق منه، إذ أورد سمة الحكمة في سياق مرجعياته، مترسّخة بما نالها من ثقافة المجتمع الدينية، قائلًا:

فيومًا يُعَزُّ ويومًا يُذَلُّ فكَمْ قد أعَزَّ وكم قد أذلّ
وما الناسُ إلا كمثلِ النّجومِ وما طلعَ الَّنْجمُ إلا أفَلْ[1]

إذ نلحظ في هذه الأبيات حديثًا واضحًا عن صورة الفناء في الحكمة، فأحوال الناس تتقلّب من عّز لِذُلّ والعكس ذلك وقد شبّه الشاعر الناس بالنجوم التي تطلع وتأفل فربما يعني بالطلوع حياتهم وبالأفول مماتهم وربما يعني بطلوعَهم هو العز الذي ينالونه وأفولهم هو سبب العز عنهم بعد ذلك نجده يقول:

وما المَرْءُ الا كمثلِ النباتِ إلى النّقْص يرجع مهما اكْتَمَلْ [2]

فنجد أنّ الحكمة في هذا البيت تكتمل وتتوسّع إلى الشطر الثاني، والحديث عن الشباب ليس فيه مقلى، اللهم شباب فائت فخلف القول مع التساؤلات الممكنة، إذ نجده يقول:

فإن قلتَ هَلْ للشباب ارتجاعٌ فَخْفُ من القول إن قلت هلْ[3]

كذلك نجد هذا المعنى في موضع آخر، دلالة على الرغبة في تضمينه ومقصدية يرغب بها، قائلًا:

تعودُ الدياجي إلى لونها وليسَ يعودُ شبابُ نصل
ويبْلى على الرّوض ثوبُ الرّبيع ولكنْ يُجدَّدُ من ذي قَبل[4]

هذه الأبيات بدأت بالحكمة، ثم توسّعت في الدلالة الكلّية لها على عقد التشبيهات التي أعطت فعالية في الصورة والسواد والبؤس، يتجلّى في الدياجي إلى

---

(١) مالك بن المرحّل أديب العدوتين: ٣٤٤.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المكان نفسه.

لونهـا، والـدياجي تعنـي الظـلام (الليـالي الظلمـاء) مـع الكهولـة بالمقابـل، ووصـولًا للشـباب بعـد، فهـو قـائم علـى التـأويلات الخاصّـة، الحكمـة مـع الفنـاء، كـذلك نجـد مظهر الحكمة متكررًا عند الصرصري، قائلًا:

إنّـــي لأكـــره رغـــدًا أقتضـــيه وإن كـان ابتـداء مـن السـمح الـذي وعـدا
لا فـرقَ بـين سـؤال المـرءِ مانعـه ومقتضـاه لـذي وعـدٍ يقـول غـدا
وعاجـلُ المنـع أحلـى مـن مماطلـةٍ يعـالج القلـبَ مـن تغليلهـا كمـدا (١)

فـي هـذه الأبيـات يعبّـر عـن إبائـه وعزّتـه فـيعلن أنّ نفسـه الأبيّـة تكـره الرغـد الـذي يأتيهـا عـن سـؤال، ويـرى لـيس هنـاك فـرق بـين سـؤال المـرء البخيـل المـانع للخيـر، وبـين اقتضـائه ممّـن وعـده ولـم يـوفِ بوعـده، بـل يـرى أنّـه عاجـل المنـع أحلـى مـن المماطلـة في الوعد، لأنّ هذا يصيب القلب بالكمد.

إذن نلحـظ علـى كـلا الشـاعرين العنايـة فـي تضـمين مظهـر (الحكمـة) أثـرًا فـي مرجعيـاتهم الثقافيـة، ليكـون سـياقها المخفـيّ هـو النصـح والإرشـاد المترسّـخين مـن ثقافـة ذلـك المجتمـع (المركزيـة الدينيـة)، فهـي لا تعـدو إلّا أن تكـون ممارسـة فعليـة يرغـب كلا الشاعرين توظيفها بوصفها مظهرًا للإشهار والتعلّم.

٢. الوعظ :

وإن نـال الـوعظ(*) مسـمّيات أخـرى مثـال (التـذكير، الإنـذار، التحـذير)، إلّا أنّ

---

(١) ديوان الإمام الصّرصري: ١٢٤.

(*) الـوعظ فـي اللغـة: الـواو والعـين والظـاء كلمـة واحـدة فـي الـوعظ التخويـف، والموعظـة النُّصـح والتّـذكير بالعواقـب، وفـي التنزيـل { فَمَـن جَـاءَهُ مَوْعِظَـةٌ مِّـن رَّبِّـهِ}، أمّـا الـوعظ فـي الاصـطلاح فهـي النّصـح والتّـذكير بـالخيرِ بمـا يرقّـق القلـوب ويحـذّر النفـوس ممـا نهـى الله عنـه، المعجـم الوسـيط: المؤلّـف: إبـراهيم أنـيس، عبـد الحلـيم منتصـر، عطيـة الصـوالحي، محمـد خلـف الله أحمـد، مجمـع اللغـة العربيـة، مكتبـة الشـروق الدوليـة، مصـر، الطبعـة الرابعـة، ٢٠٠٤م: مـادة (وعـظ)، القـرآن الكـريم: البقـرة: ٢٧٥، معجـم مقـاييس اللغـة: تـأليف أحمـد بـن فـارس زكريـا أبـو الحسـين، دار الفكـر، ٢٠٠٧م: ١٢٦/٥.

The Prophetic Praises

between Jamal Al-Din Al-Sarsari and Malik bin Al-Marhal Al-Andalusi

(A Comparative Study)

Abstract

The references of both poets (The Andalusian-Al-Sasari) intertwine features that made the content of their literary productions convergent and contradictory features in some others. As the religious context gained from their cultural production to become dominant over other topics, so their photographs differed in the selection of topics and their inclusion in proportion to the religious context used in that part, and they were also keen on being comprehensive in writing down the information so that their proofs would be the Noble Qur'an and the Noble Prophetic hadith.

They also deliberately based on the patterns of storytelling contained within the Qur'anic context as proof of that event. On the other hand, religious rulings were hidden behind that, which al-Sarsari was more keen on settling them, unlike his Andalusian companion, who remarkably sought to appeal to the clear poetic language that the reader understands without diving into Arabic dictionaries. As for Al-Sasari, and because of his environment, which spread to him that poetic language far from ease and clarity, so that his references are consistent with the generosity of the people of the Orient. Thus, we can say that the environment in which the

two poets lived had clearly affected their cultural output, as well as the religious sessions and the stature of scholars and sheikhs that influenced the two poets. Their poetry was closer to the educational poetry and their call to disseminate the features of the Islamic religion in a manner commensurate with the context of that society, taking into account the persuasion that led to their literary imaginations, which also received an abundance of images and lessons in filling those lines to result in winning the hearts of readers and the religious culture emerging in that era.